تموز 2026 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية العدد 14
July 2026 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences No. 14
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

المكان وتقنيات بنائه في الخطاب السردي لصالح مطروح السعيدي

الباحث: يعقوب يوسف راهي
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب
أ.م. د محمد حسن عباس الزيدي
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب.

مستخلص البحث:

يسعى هذا البحث إلى دراسة المكان في سرديات الكاتب صالح مطروح السعيدي، والكشف عن آليات بنائه ووظائفه الدلالية، وبيان علاقته ببقية عناصر النص السردي، معتمدًا المنهج الوصفي التحليلي بوصفه الأداة المنهجية الملائمة لتحليل البنى المكانية واستجلاء تجلياتها. وقد انتظم البحث في مبحثين، اشتمل المبحث الأول الذي سلط الضوء على سيرة الكاتب الأدبية على ثلاثة مطالب تناولت مفهوم المكان في اللغة والاصطلاح، والتجلي السيكولوجي للمكان، وتجليات البناء المكاني ودلالاته. أما المبحث الثاني، فقد تناول أثر الوصف في بناء المكان، ودور أصوات الشخصيات في تشكيله، وعلاقة تقاطع الزمن بالبناء المكاني، فضلًا عن دراسة المكان بوصفه فضاءً لتجلي الهوية والانتماء، ليختُتم البحث بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي أسفر عنها.

الكلمات المفتاحية: المكان, تقنيات, صالح مطروح, السردي

Place and its Construction Techniques in the Narrative Discourse of Saleh Matrouh Al-Saidi

Researcher: Yaqoub Yousef Rahi
Department of Arabic Language/College of Arts
Assistant Professor Dr. Muhammad Hassan Abbas Al-Zaidy
Department of Arabic Language/College of Arts

Abstract

This research aims to study place in the narratives of the writer Saleh Matrouh Al-Saidi, revealing its construction mechanisms and semantic functions, and clarifying its relationship to the other elements of the narrative text. It employs the descriptive-analytical method as the appropriate methodological tool for analyzing spatial structures and elucidating their manifestations. The research is organized into two sections. The first section, which sheds light on the writer's literary career, includes three subsections addressing the concept of place in language and terminology, the psychological manifestation of place, and the manifestations of spatial construction and its connotations. The second section examines the impact of description on spatial construction, the role of characters' voices in shaping it, and the relationship between the intersection of time and spatial construction. It also explores place as a space for the manifestation of identity and belonging, concluding with a summary of the most significant findings.

Keywords: Place, Techniques, Saleh Matrouh, Narrative

المقدمة:

يُعَدُّ المكان من المفاهيم الأساسية التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم، لارتباطه الوثيق بوجود الإنسان وحركته وتكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي، فضلاً عن دوره في تشكيل الهوية الفردية والجمعية. وقد حظي هذا المفهوم باهتمام متزايد في الدراسات النقدية الحديثة، ولا سيما في مجال النقد السردي، الذي اتجه إلى استكشاف البنى المكوِّنة للنص الأدبي وتحليل وظائفها الجمالية والدلالية.

ويحتل المكان منزلةً محوريةً في الخطاب السردي؛ إذ لم يعد مجرد إطار تجري فيه الأحداث، بل غدا عنصرًا بنائيًا فاعلًا يسهم في تشكيل الشخصيات، وتوجيه مسار الأحداث، وإنتاج الدلالات، فضلاً عن تفاعله المستمر مع الزمان وبقية العناصر السردية، ومن ثَمَّ أصبح المكان فضاءً دلاليًا تتداخل فيه الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية والرمزية، الأمر الذي جعل دراسته مدخلًا مهمًا لفهم البنية السردية والكشف عن رؤى الكاتب وأبعاد تجربته الإبداعية.

المبحث الأول :

أولاً: نبذة عن حياة الكاتب

وُلد الروائي صالح مطروح السعيدي في قضاء الحي بمحافظة واسط سنة 1957م، وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية هناك، متخرجاً في إعدادية الحي للبنين عام 1975 (الفرع العلمي)، ثم تخرج في المعهد المهني الزراعي بمحافظة ميسان (قسم البستنة) سنة 1977، عايش ظروف الحرب وما خلّفته من آثار إنسانية ونفسية انعكست في تجربته الأدبية، ونشأ في بيئة عائلية محافظة.(1)

بدأ السعيدي مسيرته الأدبية في منتصف ثمانينيات القرن العشرين بكتابة القصة القصيرة، ونشر أولى قصصه في الصحف والاذاعات المحلية ، وفي عام 2001 أصدر كتابه الأول "جذور الضفاف" الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد ضمن سلسلة "ثقافة ضد الحصار"، متضمنًا مجموعتين قصصيتين: "جذور الضفاف" و"شذرة مري"، كما نشر عدداً من قصصه في الصحف والمجلات، منها: "خطوط لاهثة" (2004/10/13)، "تحت ظلال الموت" (2005/1/26)، "إشارة الخلاص" (2005/6/16)، "نداء الماء" (2006/4/22)، "خطوط التوازي" (2006/10/18)، "دم على جدران المدينة" (2012/1/28)، و"خطوط الندم" (2017/12/14).

ومن أبرز إصداراته: رواية "أرصفة الجحيم" (2013)، و"حفرة السلمان" (2018)، والمجموعة القصصية "اعترافات صالح بن حمدان" (2017)، و"مدونات على جسد القتيلة" (2018). كما شارك في مجموعات مشتركة منها: "مدارات" (2017)، و"هنا نلتقي"، و"ثنائيات". ولديه مجموعتان مخطوطتان غير منشورتين هما "خطوط" (10 قصص) و"أسرة" (9 قصص)، فضلاً عن حصوله على عدد من الجوائز والشهادات التقديرية.

ثانيا: مفهوم المكان في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب في مادة (مكن) والمكان الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع، قال ثعلب: "يبطل أن يكون مكان فعال لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك واقعد مقعدك قعد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه قال: وإنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية لأن العرب شبه الحرف بالحرف"(ابن منضور، ط13، 414)

وفي الاصطلاح تطور مفهوم المكان في الدراسات الأدبية ليصبح أكثر عمقاً وتجريداً، إذ لم يعد ينظر إليه على إنه مجرد حيز جغرافي أو مسافة مادية، بل كعنصر فاعل في تشكيل الوعي والرؤية، فنحن لا نعيش

(1) مقابلة شخصية مع الكاتب، بتأريخ 2025/1/15.

في المكان فحسب، بل "نحمله في داخلنا، فكل بيت سكنه الإنسان يتحول إلى كون صغير تسكنه الذاكرة والأحلام، فالمكان ليس إطاراً خارجياً بل هو كيان وجداني يختزن في داخله الزمن العاطفي للوجود" (باشلار,1984، 32)، لم يكن المكان في السرد الأدبي مجرد عنصر جمالي، بل هو تقنية تؤدي دوراً في فهم دلالات النص، وفي الوقت ذاته فإن التعامل مع المكان يحدد نسبية الابداع عند الكاتب، عبر طريقة ترابط طرحه وعناصر السرد الأخرى (الشخصية، الزمان، الحدث...الخ).

ويشكل المكان في البناء القصصي والروائي مادة أساسية وجوهرية لفهم الخطاب، فهو الكاشف لثقافة المبدع وموسوعيته، بل هو أحياناً الأداة التي تكشف أيديولوجيا صاحب النص، سواء أكان بشكل ظاهر في عناصر السرد أو بشكل رمزي، لأن المكان لا يكشف فقط عن ثقافة المبدع وموسوعيته، بل يغدو أداه فنية تنعكس من خلالها أيديولوجية صاحب النص ورؤيته للعالم (ينظر: بحراوي، 1990, 31)

من هذا المنطلق يمكننا القول: إن العلاقة بين الإنسان والمكان قائمة على مفهوم التأثير والتأثر في الأدب أو في الواقع، فالمكان السردي هو الذي يكشف أغوار النفس الإنسانية، وما يثيره من انفعال سلبي أو إيجابي في نفس الحال (ينظر: الضبع، ٢٠١٨م، ٧٦)

ثالثاً: التجلي السيكولوجي للمكان

يمكن لعنصر المكان أن يمثل المرآة العاكسة لبواطن الشخصية وتمثلاتها النفسية بما يحمله من طاقات تعبيرية، وجسدية عبر السيمائيات المرتبطة به، فيكون العامل الأساس في تأويل الخطاب السردي.

"إن المكان الروائي لا يكتسب دلالته من أبعاده الهندسية وحدها، وإنما ما يثيره في نفس الشخصية من إحساس بالألفة أو النفور" (حسن بحراوي، 1990, 26-27) فالمكان لا ينحصر في أبعاده الهندسية أو المجالات المحدد التي تحصل فيها الأحداث والمواقف، وإنما يمتلك بعداً جمالياً وفنياً يضفي على العمل الإبداعي تميزاً وتفرداً في حال تمكن صاحب النص من التعامل معه بمهارة أدبية.

انطلاقاً مما تقدم يتضح أن علاقة الإنسان بالمكان علاقة متبادلة وغير ثابتة "فالإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه يأخذ من الطفولة طقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره وعواطفه على رسم المكان، فإذا به كالفنان الذي يختار من الألوان ما يساعده على تنفيذ لوحته الفنية ويساعده على نقل ما يريد يقوله: بوصف أن المكان دائماً في حركة أخذ وعطاء مع شخصيات وأحداث الرواية" (سيزا قاسم،٨٤)

أولى الكاتب اهتماماً لافتا لأمكنة ذات دلالات وأبعاد نفسية متنوعة، إذ أكثر من توظيفها، فهو يقوم بتحديد الشخصية التي تنتمي إلى أمكنة مختلفة عبر تشكلات السرد وتقنياته، لعب دور المكان أثره في حياة شخوص رواياته وقصصه، ولو تأملنا مشهداً من قصة احتمال بعيد" ضمن مجموعة " اعترافات صالح بن حمدان"، وفيه يقول الكاتب: (كانت منزوية في الغرفة الطّينية القذرة والمتهاوية تشجع نفسها وتحاول ازدراء خوفها الذي طفق يتصاعد ويغلف أديرة روحها بهلع شديد، حين سمعت طرقاته المعتادة والمألوفة لديها نهضت لتفتح الباب..) (اعترافات صالح بن حمدان، 6) نرى أن المكان النفسي في هذا المقطع يتجلى من خلال تفاعل الشخصية مع الغرفة الطينية القذرة والمتهاوية، حيث أصبحت انعكاساً لحالتها الداخلية المضطربة، وهو ما يوحي بالانكسار وعدم الامان، كما أن انعزالها داخل الغرفة يعمّق الاحساس بالوحدة، وعند سماعها للطرقات المعتادة والمألوفة، انتقلت من حالة الرعب إلى الطمأنينة، مما يدل على أن المكان النفسي يتبدل تبعاً لتحول مشاعر الشخصية فالغرفة الصغيرة التي نحيا فيها "تظل في الذاكرة ملجأ للانطواء والحلم" (باشلار،1984, 31) والبيت يتحول إلى ملجأ آمن أو إلى مكان خانق، بحسب التجربة الشعورية التي تعيشها الشخصية داخلها.

وفي نص آخر يقول الراوي: (وقفت وسط الصالة خائفة ومرعوبة والدم يحاصرها، يضغط عليها، غادرتها القوة التي شعرت بها قبل قليل تتدفق بداخلها، هزمها الدم، إذ رأت دماً على الجدران، فوق البلاط، على الطاولة، فوق الكراسي، جلست غامسة أصبعها بالدم، نهضت، رفعته إلى أنفها، شمت فيه رائحة زوجها وعناده وهو يطمئنها أن لا شيء سيحدث له) (اعترافات صالح بن حمدان، 89)

وتعكس القراءة النقدية الفاحصة لهذا النص أن حضور المكان بوظيفته النفسية يتجلى بعدما تتحول الصالة إلى مكان مشحون بالخوف، فانتشار الدم يعكس حالة البطلة الداخلية، وعندما تشم رائحة الدم تستحضر زوجها وعناده، فيكون مرآة لقلقها وحزنها.

وفي أكثر من مكان يبين الكاتب العلاقة بين المكان والشخصيات، إذ يسرد جزئيات البيت القديم الذي كان محط أرواح الأموات، ووجع التعساء والمحرومين والضعفاء، وذلك لأن أجداده الذين كانوا موجودين في هذا البيت قاموا ببناء أمجادهم، وأقاموا حضورهم على أنّات المساكين وآلامهم وأحزانهم، فأصبح هذا المكان شديد الانتماء للواقع النفسي المأزوم لتلك الشخصية، ومن ذلك يقول الكاتب: (رجل يعيش تحت وطأة كؤوس حرمانه ووجعه المزمن الممتطى صهوة الجسد الذي صار ومنذ زمن طويل هدفاً لجميع الأمراض والجراثيم الخبيثة وسط بيت قديم متداعٍ تسكنها أرواح الاموات، وثارات الدم ووجع التعساء وعرق المحرومين وصراخ الضعفاء وخيبات العشّاق وقهقهات المتخمين على موائد الأجداد الذين بنوا أمجادهم وأقاموا حضورهم على أنات المساكين ووجع الفلاحين وعرق المحرومين) (مدونات على جسد القتيلة، 19)

وتؤشر دراسة نصوص السعيدي السردية أن البنية المكانية في السرد تمتلك الملازمة الوطيدة بينها وبين الشخصية، والملازمة هنا تعني الانسجام النفسي والاجتماعي لتظهر مشاعر الألفة والسكينة، فالمكان وما يحمله من قيم الألفة والانسجام، يعكس طبيعة العلاقة العضوية والنفسية التي تربط الشخصية بالمكان (ينظر: أحمد ٢٠١٤م، ١٨٢)

وعليه من المحتمل أن يأتي المكان فيضيف على الشخوص مشاعر السعادة والفرح، فإن انطباعات الألفة التي مهما كانت قصيرة ومتخيلة، تبدو متجذرة إنسانياً ولا تحتاج إلى تبديل الموقع، وهي تصلح لدراسة السيكولوجية المباشرة، حتى وإن اعتبرتها العقول تهويمات كسولة (ينظر: غاستون باشلار،1984, ١٣٤)، وهذا ما نجده في قصة (جذور الضفاف)، إذ نلاحظ توظيف القاص للمكان المقدس، الذي يبعث في النفس الطمأنينة والسكينة فيقول:(نلف معظم البيوت فنحصل على كمية وافرة من النقود ثم بعجلة سريعة نتوجه إلى مرقد سعيد بن جبير دون أخذ الإذن من آبائنا أو امهاتنا، ففي ذلك اليوم كل شيء مباح وعادي ولا عقاب علية، وهناك نجد المئات من الرجال والنساء والصغار قد بكروا قبلنا) (جذور الضفاف, 20)

ويمكن اكتشاف أثر القلق النفسي بالمكان المقدس، وهذا المكان يمنح الشخصيات شعوراً بالأمان والسكينة، والانفلات المؤقت من القيود اليومية، فيتحول المرقد الى ملاذ نفسي يخفف القلق، ويمنح الذات حالة من الراحة الداخلية والسلام الروحي.

رابعاً: تجلّيات البناء المكاني ودلالاته

للمكان قدرة كبيرة على تصوير الأشخاص وحبك الحوادث، مثلما للشخصيات أثر في صياغة المبنى الحكائي للرواية، وفي هذا الصدد يعبر بعض النقاد عن أهمية المكان بوصفه: " المساحة التي تجري فيها الأحداث وتنفصل بواسطتها الشخصيات بعضها عن بعض، وهي تفصل القارئ عن عالم الرواية فتنقله من مكان لآخر ليتعرف على أماكن شتى" (إبراهيم ،2010,1، ١٣١).

ومن خلال استقراء المجموعات القصصية للكاتب، سنجد أن المكان (المتنقل)، وهي الشاحنة العسكرية تتشكل بنية المكان، وتحديداً داخل قمرة القيادة، وهو مكان مغلق، والمكان هنا يمثل منظومة التسلط، وتوحي الأبنية المكانية بالجاهزية المرتبطة بالحاكم، واستدعى الكاتب رموز من روح القوة (مسدس البرونيك)، ليخلق المكان توتراً عند المتلقي، ومن ثم يتحول إلى صراع ينسجم مع فكرة العمل السردي القائم على صراع الأنا مع الآخر مكان (مغلق، ومتحرك، محصن) وفي ذلك يقول الكاتب: (**داخل كل شاحنة من الشاحنات العشر يتواجد حارسان، يجلسان مع السائق في قمرة القيادة لأن كل عجلة مقفلة بإحكام وهي محصنة من أي اختراق، الحارسان لا ينتميان إلى وحدة واحدة أو صنف واحد وإنما كل منهما من فصيلة مغايرة تنتمي لوحدة مستقلة، الأول يجلس لصق الباب وهذا امتياز له، على جنبه يرقد**

مسدسه البرونيك، الظاهر للعيان، لذلك فالرجل يبدو مخيفاً، أما الثاني فيجلس لصق السائق، يبدو صغير السن لكنه كثير الحركة) (اعترافات صالح بن حمدان، 102-103)

وفي نص آخر حاول الكاتب أن يقدم البنية المكانية(الشارع) بشكل يتسم بالسكون مثل الغرفة أو البيت، بل جعله مكاناً مفتوحاً مشحون بالديناميكية، وفي رواية أرصفة الجحيم، محاولة من صاحب النص منح المكان طاقة حركية، ولكي يوسع النص من دلالة البنية المكانية طرح (الثنائية المتضادة)، وهي (طويل/ قصير) و(ترابية/ معبدة) و(مستحمة بالشمس/ منقوعة بالأمطار)، وهذا يفسر عدم الاستقرار للأحداث والشخصيات المرتبطة بالمكان ووظيفته، ومن ذلك قوله: **(طرق طويلة مندفعة إلى مديات بعيدة، طرق قصيرة معبدة وأخرى ترابية، طرق مغسولة بعرق الرجال، طرق مستحمة بالشمس وأخرى منقوعة بمياه الأمطار، طرق مستباحة بالدخان والبارود والغبار...)** (ارصفة الجحيم، 17)

وفي بنية سردية أخرى لحادثة الهروب الجماعي من كردستان نحو تركيا وإيران نتيجة بطش النظام، يقول الكاتب: **(الشعب الكردي في كردستان ومعه مئات، بل الاف المقاتلين من البيشمركة والانصار ومقاتلي قوى اليسار والأحزاب والقوى الوطنية المناوئة للحكومة العراقية يفرون من بطش النظام وآلته المدمرة ويندفعون نحو تركيا ونحو إيران)** (ارصفة الجحيم، 229-230)

ومن القراءة التفكيكية للنص السردي يتضح أن المكان يتحول إلى مكان صراع مع السلطة الظالمة، وبهذا تغير تشكله من مكان للأمان إلى مكان آخر طارد، وهذا ينتج من حيث البناء السردي بنية درامية جديدة، من هنا جاءت الحركة باستدعاء الافعال (يفرون، يندفعون)، كما جسد المكان الصراع مع السلطة الحاكمة، الذي انتج هذا والاندفاع.

أما في المجموعة القصصية (جذور الضفاف)، فيصف الكاتب مكان الانتقال إذ وظف الأصوات والصور الحسية، فيحدثنا عن أماكن عديدة، من السياج إلى (الجملونات)، ومن ثم إلى قصر المدير، فيستخدم الكاتب أسلوب السرد البسيط لنقل الأحداث بطريقة تثير الفضول لدى القارئ، مع طرح ايقاع صوتي (صرير ودمدمة الحديد)، التي توحي بقدم المكان، وثناياته الضدية المتمثلة بالمدينة والقرية، ومن مصاديق ذلك قول الكاتب: **(نقترب من سياج بناية النسيج، نجتاح الجملونات التي ينبعث منها صرير المكائن ودمدمة الحديد حتى نجد انفسنا قد حاذينا قصر المدير المقابل لبناية النسيج الذي تفتخر به القرية لأنه يحاكي بيوت المدينة، بل إنه يتفوق على بعضها)** (جذور الضفاف، 10)

المبحث الثاني: تشكل المكان من خلال:

أولاً: الوصف

يعد الوصف في السرد من أهم الأساليب التي يعتمدها الكاتب في تجسيد المكان فيراه "نظاماً أو نسقاً من الرموز والقواعد يستعمل لتمثيل العبارات وتصوير الشخصيات أو مجموع العمليات التي يقوم بها المؤلف لتأسيس رؤيته الفنية" (إبراهيم،ط1, 2001, 175) والوصف من المنظور الأدبي، ما هو إلا الأداة المثلى التي يُتكأ عليها للكشف عن المكان في السرد.

ويؤدي الوصف في البناء السردي وظيفتين أساسيتين الأول: تعطيل حركة الزمن السردي، والثاني: إتاحة الفرصة للراوي للتأمل والوصف والاستيطان، فيتمدد زمن السرد ويتقلص زمن الحكاية، سواء أكانت المقاطع الوصفية منفصله أم متداخلة في نسيج السرد، كما انه يقوم بدور تفسيري وايحائي، اذ تسهم الوقفات الوصفية بدور مهم في تحريك العمل السردي، وتصعيد احداثه" (مها,2004, 256)

لو تأملنا ما طرحه الكاتب صالح مطروح السعيدي في سردياته لأتضح الوصف، سيما في رواية (ارصفة الجحيم)، فنجد أن المكان يشكل مرتكزاً لافتاً عبر تراكم التفاصيل الدقيقة، من تلك الأمكنة الموصوفة(**فراش عسكري، قاعة كبيرة، جنود برتب واعمار متفاوتة، أدوات طبخ، حقائب ملونة، أحذية جلدية**

ثقيلة)، يقول: الكاتب: **(على فراش عسكري وسط قاعة كبيرة مليئة بجنود برتب واعمار متفاوتة وبأدوات طبخ وحقائب ملونة واحذية جلدية من النوع الثقيل)** (ارصفة الجحيم، 17)

ويتضح من خلال التمعن في الموصوفات المكانية للنص، اتسامها برسم صورة واقعية محسوسة، عبر جزئيات حياة عادية ومتطلبات العسكرية، فوصف جزئيات المكان العسكري دلالة على التهيئة والاستعداد.

أمّا في قصة (جذور الضفاف) فيلاحظ امتياز الوصف بالسمة البصرية الملموسة مع التنوع في الأمكنة، وهي (شوارع ضيقة، بيوت طينية متلاصقة) وجميعها ذات دلالة توحي ببساطة الحياة المعيشة وحالة الفقر، سيما في الريف.

ومن الملاحظ أن الكاتب حاول أن يشبه تلك البيوت، بما فيها من حيوانات ضعيفة متهالكة، وكأنه يرمز عبر وصف المكان الى طبيعة الحي، وحاله الاجتماعي الهزيل، وفي ذلك يقول:(**وسط الشوارع الترابية الضيقة تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة نعدو مرحين وخلفنا تتصاعد كتل الغبار، البيوت الطينية المتلاصقة التي هي أشبه بحيوانات هزيلة تتكئ على بعضها خوفاً من الانهيار المريع.)** (جذور الضفاف، ص 5)

يقول السعيدي وهو يصف مشهداً سردياً يجسد دلالة المكان، الذي يوحي بالضخامة والعظمة (**القصر الملكي)**، وهذا النوع من الوصف يكثر في الأدب، ليرسّخ مركزية القوة والسلطة والهيمنة، امّا ذكر الجنود، يأتي لتعزيز الأحكام السلطوية وهيمنتهم على مصائر الناس، فيقول: **(اندفعت صوب القصر الملكي، ذلك القصر الكبير الذي تتقدمه سبع أبواب على كل باب مجموعة من جنود بسلاء اشداء وامناء اختارهم الكاهن الاعلى)** (مدونات على جسد القتيلة، ص 37)

وللوصف وظيفة أساسية " تتجسم ضمن الوظيفة المرجعية وشحنها بإيحاءات توهم بالواقع" (محمود،1998, 206)، وأكثر من ذلك، فقد ينتقل الوصف من وظيفته الزخرفية إلى ما يعرف بالوظيفة الايهامية، أي أيهام المتلقي بالواقع، وذلك من خلال وصف المكان بدقة، مما يوحي للقارئ بالمطابقة بين المكان الروائي والعالم المحيط بالقارئ، وهذا ما نجده في قول الكاتب: **(وسط بناء مبني بشكل دائري وفق هندسة معمارية قائمة على أقواس عريضة مسندة بجدران سميكة تساندها أعمدة رخامية أكثر ارتفاعاً، تناسقت بجمالية فذة ورائعة مع أروقة كثيرة وصالات مزدانة بثريات الكريستال ومصابيح ملونة، ومرايا عاكسة لستائر الكوخ وشرائط الحرير والإستبرق المعلقة فوق لوحات كبيرة لملوك بلقطات مختلفة وملكات تتوهج وجوههن بجمال آسر)** (مدونات على جسد القتيلة، 26-27)

كما أسهمت كثافة التفاصيل الوصفية في تشكيل صورة مكانية، بما يضمه من أروقة، وصالات واسعة، مزدانة بثريات الكريستال، والمصابيح الملونة، والمرايا العاكسة، والستائر الفاخرة المصنوعة من الحرير والإستبرق، وكذلك وجود لوحات كبيرة تجسد الملوك والملكات، وهو ما يعكس قدرة الوصف على تشكيل مكان غني بالدلالات الجمالية والرمزية.

ثانياً: عبر صوت الشخصيات

تتكشف ملامح وصورة المكان في سرديات الكاتب من خلال صوت الشخصية، لكن بشكل غير مباشر، فالتشكل هنا ليس بشكل مصرح به مثل الوصف المكاني، بل من خلال ما تتحدث به الشخصية من حوار، وعليه كشف المكان على أنه مكاناً مضطرباً، وهذ يتضح عبر قول الأب (قصفوا ودمروا اسالات الماء)، وكذلك من خلال قول الفتاة ياسمين (لا يوجد ماء داخل الانابيب)، ومن مصاديق ذلك قول السعيدي: **(جلست العائلة منهكة ومرعوبة، تداري أوجاعها بالصمت فيما ظلت الشبابيك تهتز بعنف من أثر الانفجارات المدوية، ذهبت ياسمين إلى المطبخ لتعد شيئاً للفطور، من هناك جاء صوتها محملاً بالخيبة والدهشة والانكسار، لا يوجد ماء داخل الأنابيب. قال الاب: إذاً قصفوا ودمروا اسالات الماء.**

قالت الأم: إنهم يجهزون على كل شيء ويدمرون كل شيء.

قال صفاء: هذا المسار الحرب وطرقها وهذه قذارتها، رفعت الأم صوتها: يا ويلهم من عذاب الله..) (أرصفة الجحيم, 135-136)

وفي نص حواري بين مجموعة من رجال السلطة القمعية مع امرأة هرب زوجها من بطش السلطات خارج البلاد، فقد يكشف الحوار عن طبيعة المكان بشكل إشاري، عبر دلالات الحوار، وبذلك يتبين من خلال هذا الحوار أن المكان، ذو سمة قمعية من خلال (التحقيق)، المباغت في السؤال (أين زوجك)، في المكان السلطوي المغلق.

زد على ذلك لم تكن لغة الحوار لغة اعتيادية، بل تتجلى فيها نبرة التهديد والوعيد، ومن هنا نجح الحوار في رسم دلالات المكان بشكل إيحائي بالقمعية والسلطوية، يقول الكاتب: (**لم تتصور ان البلد الذي تعيش فيه وتحبه وتقدس ترابه به رجال يمتلكون تلك القسوة والخسة والنذالة! لم يكلموها بلطف ولم يساوموها على شيء، باغتها سؤالهم الخطير: اين زوجك؟ اجابت صادقة: ما الذي حدث له، انه في الجبهة؟ ارجوكم اخبروني وقولوا ماذا حدث له؟ قالوا لها: اعترفي.. افضل لك ان تعترفي. اجابت وهي غير مصدقة ما يحدث معها:**

على ماذا اعترف؟ قالو: لا تكوني بلهاء.. لا تتحامقي.. فقط قولي الحقيقة.. اعترفي) (حفرة السلمان، ص 178-179) حيث ينجح السارد في رسم الصورة الإنسانية لمكان متوتر، إذ يتحول المكان إلى فضاء للاستجواب والترهيب من خلال لغة المتحاورين، ومشاعر الخوف التي تسيطر على المرأة حين سألوها عن زوجها الذي لم يمتثل لأمر السلطة بتنفيذ حكم الإعدام بحق أحد المواطنين، الأمر الذي دفعة للفرار خارج البلاد.

كما يتضح المكان في موضع آخر عبر سلسلة من التساؤلات مع نفسها عن الفتحة التي توجد في زنزانة من سجن حفرة السلمان، إذ كشفت الشخصية عن عزلة السجن وظلمته، وتحول المكان إلى عنصر في إنتاج الأسئلة، يقول الراوي:(**انتبهت فثمة خيط ضوء يأتي من الأعلى، يبدو أن تسلل ضوء الشمس يأتي من بين لوحي البوابة العليا أو من ثقب يوجد في سطحها، تساءلت بمرارة، لماذا تركوا هذا الشق؟ وهل هو من صنعهم كي يتأمل المحكوم بواسطته موجودات ذلك العالم السفلي أم أنه موجود بشكل طبيعي أو من أثر غفلة الحداد الذي صنع البوابة)** (حفرة السلمان، ص 337)، في هذا السياق، يتكوّن الفضاء المكاني عبر تفاعل الحوار الداخلي للشخصية مع تأملها للمكان، ليتحول الضوء المتسلل من الأعلى إلى بؤرة دلالية تجسد سؤالا وجوديا يطرحه المكان على ذاته وعلى الوافد إليه.

ثالثاً: بوصفه فضاءً لتجلّي الهوية والانتماء

أستطاع السعيدي تسليط الضوء على الهوية الثقافية من خلال منجزه السردي، الذي حمل بين طياته تشكل مختلف الطبقات غير المتجانسة، وكأنها تمثل صورة مصغرة للمجتمع، ففي بعض من سردياته نجد تجسيد المكان يمثل هوية المقاومة ومكان للعزلة والنفي، وحاضنة للألم والتجربة السياسية.

في رواية (أرصفة الجحيم) تجسدت في عنوانها هوية المكان من خلال تحويل المكان الهامشي إلى مركز للمعاناة، وبالأخص عندما يتحدث الكاتب عن عملية إرهابية طالت معلماً يحمل طابعاً ثقافياً (شارع المتنبي) " فالمكان في العمل الأدبي فضاء مشحون بالقيم الحضارية والثقافية والاجتماعية التي تكشف عن هوية المجتمع الذي يحتضنه" (عبد الملك مرتاض، 16), يقول الراوي: **(انفجار يهز شارع المتنبي يسفر عن سقوط عدد من الشهداء والجرحى وأضرار مادية جسيمة، انفجار عبوة ناسفة في شارع المتنبي، كساد بيع الكتب في شارع المتنبي بسبب استمرار حضر التجوال أيام الجمع، شارع المتنبي رئة العراق الثقافية تصاب بالتكلس والكساد والعطب)** (اعترافات صالح بن حمدان، 74)

ويمثل هذا الشارع، المعروف في الذاكرة الجمعية برئة الثقافة، فضاء نابضا بالمعرفة وملتقى للمثقفين والقراء والكتّاب، لذلك يبدو العنف الموجّه إليه وكأنه اعتداء على الثقافة نفسها، ومحاولة للنيل من حضورها ودورها في الحياة الاجتماعية والفكرية.

وفي نص آخر تتضح الهوية المكانية، لينتخب الكاتب (مدينة جلولاء)، بوصفها مكاناً حاملاً للهوية الثقافية والاجتماعية، هذا الاستدعاء أشار لتعدد الهويات المجتمعية، فتلك المدينة تتميز بالتنوع الديني والقومي...الخ.

كما وتتضح هوية المكان على أنه مكان حاضن، وليس مكان ذو سمة اقصائية، وفي ذلك يقول: **(يجنح تفكيره نحو جلولاء.. تلك المدينة العراقية الوادعة ذات التكوينات متعددة الالوان. فهي مدينة تضم إليها وتحتضن تقريبا كل أطياف الشعب العراقي وهذه خاصية تعطي لأهلها ميزة الألفة والمحبة والتسامح)** (أرصفة الجحيم، 32) فهوية المكان تحمل في النص التسامح والمحبة والتعايش السلمي.

كما وظّف الكاتب في نص آخر(المكان الريفي)، وكيف يسهم بتشكيل هوية عراقية تتميز بالارتباط بالتراث، كما ويحمل المكان هوية اجتماعية، قائمة على الاشتراك في الاحزان والاتراح والتكافل وبعض الموروثات الشعبية، كطبيعة الغناء وأنواعه الذي يحمل صفات تلك الهوية (البستات، والهوسات، والابوذية...الخ)، هذه الرؤية في تشكل المكان تتلاقى مع أهميته التي يحاول الكاتب ترسيخها، وفي ذلك يقول الراوي: **(الريف.. الصفاء، الهواء غير الملوث، امتداد الحقول، واحة الأمان، اشعة الشمس، دفئ العلاقات الانسانية، اطنب في وصف الريف لكنة بغتة توقف صاغياً إلى صوت شعر به ينبثق من راسة يقول له.. أنت فعلاً موهوم.. ترغب في رؤية الفلاحات وهن يساعدن الرجل في اعمال الزراعة، تريد سماع البستات والهوسات وترتوي آذانك بالأبوذية وهي تغني بأطوار الحياوي والشطري واللامي والمحمداوي)** (حفرة السلمان،265) وهذه العناصر تمنح الريف هويته، ويمكن القول إن الريف يصبح كائناً حياً يحمل ذاكرة وصوت ومشاعر، وليس مجرد أرض .

الخاتمة

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، أبرزها:

١- كشفت النصوص السردية عن رؤية الكاتب للواقع والحياة من خلال المكان، فجاءت الأمكنة متعددة ومتنوعة بتنوع الشخصيات والأحداث، فلم يكن المكان مجرد إطار خارجي للأحداث، بل شكّل عنصراً فاعلاً في إنتاج الدلالة وبناء المعنى، وأسهمت أنماطه المختلفة في تشكيل الأبعاد الدلالية للنص.

٢- عبّر الكاتب عن رؤاه وأفكاره من خلال المكان مستعيناً بمجموعة من التقنيات السردية المتنوعة، مما أضفى على المكان أبعاداً جمالية جديدة وأسهم في إبراز خصوصيته وأصالته داخل النص.

٣- أدّت اللغة السردية دوراً مهماً في أنسنة المكان وإكسابه أبعاداً إنسانية ودلالية، فلم يأتِ منفصلاً عن بقية العناصر الفنية، بل تداخل مع اللغة والصورة الفنية في تشكيل رؤية جمالية متكاملة تعكس وعي الكاتب بوظائف المكان وأبعاده السردية.

٤- أظهرت الدراسة أن البناء المكاني في سرديات السعيدي يقوم على شبكة من العلاقات المتداخلة بين الوصف وصوت الشخصيات، وبين المكان والزمن، وهو ما أسهم في إنتاج المكان وتشكيله داخل النص بوصفه عنصراً متحركاً ومتغيراً تبعاً للسياق السردي، لا بنيةً ثابتة أو جامدة.

٥- تبين أن العلاقة بين المكان والشخصية علاقة تفاعلية متبادلة، يؤثر كل منهما في الآخر, فالمكان قد يتحول إلى فضاء للصراع والمواجهة، وقد يصبح موطناً للألفة والانتماء، أو ساحةً للمعارك والاغتراب والنفي.

٦- كشفت الدراسة عن الارتباط الوثيق بين المكان والهوية والانتماء، إذ يتحول المكان إلى علامة ثقافية ونفسية تعبر عن موقع الإنسان من ذاته ومن محيطه، كما يجسد رؤية فكرية وثقافية واضحة داخل النصوص السردية.

المصادر والمراجع

الروايات والقصص

- أرصفة الجحيم، رواية، ط1، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، بغداد، 2013.
- اعترافات صالح بن حمدان، مجموعة قصصية، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، 2017
- جذور الضفاف، قصص قصيرة، دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001.
- حفرة السلمان، رواية، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2019.
- مدونات على جسد القتيلة، مجموعة قصصية، ط1، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، 2018.

الكتب والمراجع

- إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م.
- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، دراسة نقدية بنيوية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010
- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984.
- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي: الفضاء – الزمن – الشخصية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2009.
- حسني محمود، "المكان في رواية زينب: الواقع والدلالات"، مجلة علامات في النقد، مج7، ع28، النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1989م.
- سيزا قاسم، بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م.
- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998.

- مصطفى الضبع، استراتيجية المكان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 2018.
- مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، 2004.

المعاجم

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط13، 1956.